ثنائية الخير والشر عند المرأة في حكايات السحر
بين ألف ليلة وليلة[1] وحكايات إيتالو كالفينو[2]

نورا علي محمد مندوه
المدرس المساعد بقسم اللغة العربية

ملخص:

بلغت المرأة مكانة عظيمة في كافة العصور، بدءاً من العصور القديمة وعصور ما قبل الميلاد، وكان لها الدور الفعال في الأسرة والمجتمع والسياسة. وتُعد المرأة المحور الأساسي في حكايات ألف ليلة وليلة، وحكايات إيتالو كالفينو، ولعبت دورًا واضحًا في حكايات السحر في الثقافتين العربية والغربية بما يعكس قدرتها وذكائها، وتصميمها على الوصول لمبتغاها، سواء كانت الأهداف مادية أو معنوية، لصالحها أو لصالح مَن حولها.

لم يقتصر دور المرأة في الحكايات العربية والإيطالية على تدبيرها للسحر، إنما أصيبت به في كثير من الأحيان. فهي الجاني والضحية في الوقت ذاته، وهي المخادعة والخائنة، والوفيَّة والذكية والخجولة. ومن هنا يحاول هذا البحث الاهتمام والتركيز على الازدواجية أو الثنائية التي تلعبها المرأة في حكايات السحر العربية والإيطالية.

***

إن أغلب الحكايات في الليالي والحكايات الإيطالية القائمة على السحر يكون أساسها (الرجل)، فالمرأة تفعل السحر لتؤذيه، أو تكون مُخلِصته ومنقذته رأفةً به، أو بغرض الزواج منه بعد فك السحر عنه، وقد تنتقم المرأة بالسحر من عدوها وعادة ما يكون (رجلًا) ، أو أحد أقاربه أو أحبابه. ولا يشترط أن تنتمي الساحرة لعالم الإنس في الحكايات العربية والإيطالية، فقد تكون جنية من عالم الجن والشياطين، أو جنية متلبسة في صورة إنسية.

تنوعت أدور المرأة في الليالي والحكايات الإيطالية، ما بين أدوار الشر والخير والنفع والضرر. فالمرأة ليست سيئة الخلق دائمًا في الحكايات العربية والإيطالية، كما أنها لم تستخدم السحر في

الحكايات دائمًا في أعمال الشر وتدبير المكائد؛ مثلما أشارت بعض الدراسات إلى ذلك الأمر، بأن المرأة استخدمت السحر للمكر وفي الخيانة، فتسحر زوجها أو غيره من الرجال كيلا تتعرقل خطَّتها، وبأن المرأة ليست لها قيمة تُذكر في الليالي إلا الشر والخداع والجنس(.([3]

فتمثلت هذه الثنائية من خلال أدوار الخير والشر التي لعبتها المرأة في كل من الليالي العربية وحكايات إيتالو كالفينو؛ ومنها:

1- الغيرة والانتقام

تنوعت صور المرأة في الليالي وفي الحكايات الإيطالية؛ نظراً لأن الحكايات العربية هي حكايات لم يجمعها مؤلف واحد في عصر معين، وكذلك الأمر بالنسبة للحكايات الإيطالية حيث انطلقت من مدن مختلفة، وجُمعت من على ألسنة العجائز وحكايات الفولكلور الإيطالي.

لذلك تختلف صور المرأة وكذلك الأدوار التي مارستها في هذه الحكايات، وسادت الصورة النمطية عن المرأة إلى جانب النظرة الدونية التي لاحقتها، فالقارئ على مر الزمان ما إن يتم ذكر المرأة في الحكايات الشعبية إلا ويضع نصب عينيه ويتبادر إلى ذهنه أفعال الغدر والخيانة والجهل.

ويمكن أن يعود ذلك إلى اشتمال بعض الحكايات على هذا النسق الثقافي، حيث تعددت أدوار الشر التي استخدمت المرأة سحرها فيه؛ ومنها الحقد والغيرة والانتقام، وفعل المكائد والدسائس، وذلك في الحكايات العربية أو الغربية، نظراً لتشابه طبيعة المرأة في كافة الأزمنة والأمكنة، وعن هؤلاء النساء يقول فيبكة فلتر:

" إن الرجال كانوا أصحاب دسائس ومكائد، لما اضطرت النساء إلى أن ينهجن نهجهم.لا غرو إذن أن يُصبح كيد النساء موضوعًا أثيراً محببا. ليس في ألف ليلة وليلة فحسب. بل في كتب الأدب أيضاً. فالمرأة الشعبية، والجارية المثقفة، وابنة الملك الجميلة، والشابة العجوز، وهذه أكثر من تلك. كل هؤلاء يتمتعنَّ بصفة، وهي أنهن صاحبات مكائد وحيل يُدبرنها لنفع الرجال أو ضررهم، بل أحيانًا لخير شعوب بأكملها أو لشرها.[4]"

يرى الكاتب أن هذه الأدوار التي انحصرت فيها المرأة في كثير من الأحيان، ماهي إلا ردة فعل على مكائد وشرور الرجال، وأن هذه الصفات لم تقتصر على نساء الليالي فقط إنما هي صورة مختزلة عن المرأة عند كافة الشعوب.

ومن الحكايات العربية التي استخدمت فيها المرأة سحرها، ودرايتها بخبايا الأمور في الانتقام؛ حكاية (الشاب المسحور)، قامت الزوجة الخائنة بالانتقام لعشيقها من زوجها، فقامت باستخدام سحرها في تحويل زوجها إلى نصف إنسان ونصفه الآخر حيوان.

" قالت:" ويلك أنت الذي فعل معي هذا الفعل، وجرح صديقي وأوجعني وشبابه، وله ثلاث سنين لا هو ميت ولا هو حي." فقلت لها: "نعم أنا فعلت ذلك". ثم إني أخذت سيفي وجردته في كفي، وصوبته نحوها لأقتلها. فلما سمعت كلامي، ورأتني مصمما على قتلها ضحكت... ثم وقفت على قدميها وتكلمت بكلام لا أفهمه وقالت:" اخرج بسحري نصفك حجرًا ونصفك بشرًا". فصرت كما تراني الآن وبقيت لا أقوم ولا أقعد ولا أنا ميت يُعرَف ولا أنا حي يوصف".[5]

ساعدت معرفة المرأة ودرايتها بأمور السحر على الانتقام من زوجها وجعله على هذه الهيئة غير الإنسانية، وذلك نتيجة لغيرتها وحقدها على زوجها، بل قامت بسحر المدينة بأكملها "فلما صرت هكذا سحرت المدينة وما فيها من الأسواق والغيطان، وكانت مدينتنا أربعة صنوف مسلمين ونصارى ويهودًا ومجوسًا فسحرتهم سمكا، فالأبيض المسلمون، والأحمر المجوس، والأزرق النصارى، والأصفر اليهود. وسحرت الجزائر الأربع أربعة جبال محيطة بالبركة. ثم انها كل يوم تضربني وتعذبني بالسوط مئة ضربة حتى يسيل دمي وتنفسخ أكتافي(.(6

إن مثل هذه الحكايات المشتملة على غدر المرأة وانتقامها، والحقد الذي يسكن قلبها، ساعد على تعميم تلك الصورة المأخوذة عنها، وبالتالي لم يأخذ القارئ مثل هذه الحكايات على محمل العبرة والعظة، وأن هذه الخصال غير الشريفة، يمكن أن يتصف بها الرجل أيضًا، وإنما اختزلها في المرأة فقط.

واشتملت الحكايات الإيطالية أيضاً على هذه الصفات غير الحميدة من الغيرة والحقد والانتقام. ففي حكاية (الببغاء) بلغ السحر ذروته، بأن سرقت العجوز الساحرة (قلب الأمير) ابن الملك الذي قتل ولدها قديماً، حيث عادت لتنتقم من ابنه كل ليلة، وأخذت تقلي قلبه في الزيت؛ ليستمر الأمير

طريح الفراش في الهمهمة والحديث بكلام غير مفهوم طوال الليل، إلى أن اكتشفت الفتاة التي تنكرت في زي الطبيب سبب علته وعالجته.

" وطلبت منهم أن يتركوها ليلة مع المريض... وجدت عجوزًا تطهو في إناء كبير قلب ابن الملك ... أعطته لابن الملك الذي أكله وشُفي.[7]"

عُرِف هذا النوع من السحر بسحر الترابط أو سحر الأثر أو المحاكاة، ويتلخص في أن يؤخَذ جزء من شَعر أو أظافر أو ملابس الشخص المراد سحره، ويتم عمل السحر عليها، وإن كان الأمر هنا تجاوز المعقول والمنطق، وذلك لأن القلب هو مضخة الدم والحياة للإنسان.

وفي حكاية (فينسيا الجميلة) دفع الحقد والغيرة الأم إلى الانتقام من ابنتها الجميلة، لأن كل من يرى الفتاة يؤكد أنها أجمل من والدتها، فاشترطت على الشخص الذي يريد الزواج منها ،قتلها ورميها في الغابة، ولكنه اكتفى بترك الفتاة وحيدة في الغابة؛ فسكنت مع اللصوص وأحسنوا معاملتها، لما تتمتع به هذه الفتاة الجميلة من صفات جميلة وخُلق حسنة، جعلت اللصوص يحسنون معاملتها، وأكرموا نزلها.

وعندما علمت الأم بأن ابنتها ما زالت على قيد الحياة كلَّفت عجوز شمطاء بتتبع أثرها، واستخدمت حيلها كي توقع بالفتاة، واستخدمت أدواتها السحرية لتضر بالفتاة الجميلة، من خلال (الدبوس السحري)؛ ذلك الدبوس الذي غرسته في شعرها، فأصابتها بالغيبوبة المؤقتة أو الموت المؤقت؛ وأصبحت كالدُميَّة.

" ذات يوم، بينما اللصوص بالخارج، كانت الفتاة تطل من النافذة وتغني، عندما مرت أسفل النافذة عجوز كانت تنادي:– أبيع دبابيس! أبيع دبابيس! – ايتها الفتاة الجميلة ألا جعلتني اصعد إليك، وسترين دبوساً كبيراً رائعا يصلح لشعرك. سمحت الفتاة للعجوز بالصعود، تظاهرت العجوز بعرض الدبوس عليها وبوضعه في رأسها لترى كم يبدو جميلاً بين سعرها وغرسته في رأسها فماتت الفتاة ".[8]

إن دافع الغيرة والحقد جعل الأم تتمنى موت ابنتها واستعانت بالساحرة للقضاء عليها، حيث ساعدتها على تنفيذ خطتها تلك العجوز بأدواتها السحرية التي استخدمتها في أفعال الشر واذية الغير.

2- فك السحر عن المسحورين.

قامت المرأة بتخليص الأشخاص من السحر الواقع عليهم على الجانبين العربي والإيطالي؛ كما في حكاية (الشيخ الثالث) في الليالي والمتفرعة من قصة (التاجر والجني)، حيث تمكنت الفتاة (ابنة الجزار) من تخليص الرجل من سحره التي فعلته له زوجته عن طريق الرش بالماء وحوَّلته كلبًا؛ فقامت الفتاة بإعادته إلى هيئته الإنسانية الأولى.

" فلما رآني صاحب الدكان أخذني ودخل إلى بيته. فلما رأتني بنت الجزار غطَّت وجهها مني وقالت: تجيء لنا برجل وتدخل به علينا؟ فقال أبوها: أين الرجل؟ قالت: هذا الكلب رجل سحرته امرأته وأنا أقدر أن أخلصه. فلما سمع أبوها كلامها قال: بالله عليك يا ابنتي خلصيه. فأخذت كوبًا فيه ماء، وتكلَّمت عليه، ورشت عليَّ قليلًا وقالت: اخرج من هذه الصورة إلى صورتك الأولى. فعُدت إلى صورتي فقبَّلت يدها"(.([9]

استخدمت الفتاة معرفتها ودرايتها بأمور السحر، واكتشفت الشخص المسحور بل وخلَّصته من سحره. وذلك كما حدث في حكاية (الشيخ الأول صاحب الغزالة)- سابقة الذكر-، وتخليص ابنة الراعي للغلام الذي حولَّته زوجة أبيه إلى عجل صغير.

إن هذه الحكاية – وما يتشابه مع أحداثها من حكايات أخرى- جاءت كمحاولة لرد الاعتبار لشهرزاد وذلك من خلال إعطائها سلاحين؛

السلاح الأول : العقل؛ والقدرة على الانتقام؛ وتمثلت هذه القدرة في تخليص الرجل مما هو عليه من سحر.

السلاح الثاني : قدرتها على رد المعروف؛ لُتصبح المرأة قادرة على فك السحر، وهي الساحرة، وهي الخائنة والوفية في الوقت نفسه، وهنا ثنائية تحملها المرأة وفي الحالتين فالمرأة هُنا (قادرة).

وفي الحكايات الإيطالية أيضًا يكون للمرأة الدور الفعَّال في حكايات السحر في تخليص الرجل من سحره، ولكن الأمر يختلف في كيفية التخليص وفك السحر عنه.

يشترط لفك السحر عن الرجل في العديد من الحكايات الإيطالية زواجه من امرأة وهو في هيئته الحيوانية أي وهو مسخ، بغض النظر عن نوع الحيوان؛ فقد يكون خنزيراً أو ضفدعا أو سلحفاة.

تزوجت ابنه الصياد في حكاية (الرجل الذي يخرج بالليل فقط) من رجل لا يظهر إلا في الليل؛ لأنه يعيش طوال النهار متحولًا إلى سلحفاة. وكان شرط عودته إلى هيئته الإنسانية بالليل وبالنهار، أن يتزوج من امرأة ويتركها بعد الزفاف ويطوف الدنيا، وعليه بعد عودته أن يجدها مُخلصة له ووفيَّة.

" وفي تلك اللحظة، ها هي السلحفاة تصل بخطواتها البطيئة. كان الزوج الذي عاد من رحلته حول العالم. ما إن وجدَ زوجته إلا وتحوَّل من فوره، فأصبح شابًا جميلًا، وبقى بجانب زوجته حتى آخر العمر".([10])

إن هذه الفتاة كانت سبباً في عودة هذا الملك إلى طبيعته البشرية مرة أخرى. وخلصته من سحره بفضل حفظها له أثناء غيابه، وساعدها في ذلك الخاتم السحري الذي استخدمته في التغلب على الثلاثة رجال الذين أرادوا الحصول عليها.

اعتمد فك السحر هنا على زواج المرأة منه على هيئته الحيوانية، وفد تتزوج المرأة من رجل ميت مسحور بسحر يجعله في غيبوبة مؤقته، ولا تنفك هذه اللعنة أو السحر إلا بحراسة امرأة جميلة له لمدة عام كامل؛ وذلك كما في حكاية (قصر الرجل الميت)، فهذا الرجل الماكث في القصر المهجور، وجَبَ أن ترعاه فتاة جميلة مدة معينة، كي يعود مرة ثانية إلى الحياة، وينفك السحر عنه، وهذا ما فعلته الفتاة، حينما قامت برعايته لأكثر من سنة حتى عاد للحياة مرة أخرى.

"ردت الفتاة: أريد أن أرحل وأبحث عن الرجل الميت.. استيقظت الفتاة في اليوم التالي وأخذت تطوف بالقصر. فتحت كل الأبواب حتى وجدت في إحدى الحجرات رجلا ميَّتا ممددا.. جلست الفتاة بجانب سرير الميت وكانت لا تتحرك إلا للذهاب إلى الأكل هكذا مضت عاما كاملا وهي ترقب الميت... مرَّت ثلاثة شهور أخرى.. مرت ثلاثة أيام ثم أربعة... في تلك اللحظة انفك السحر من القصر وخرج الخدم من ناحية والوصيفات والطهاة والسائقون من ناحية أخرى".([11])

وبذلك لعبت المرأة دورًا فعالاً في تخليص هؤلاء الرجال من السحر واللعنة، فالمرأة ليست دائما كما يذكر محمد جاسم " خائنة عديمة الإيمان، وإنها على التوالي خبيثة، ومؤامِرة، تُخطِّط دائماً لتحقيق رغبتها بأكثر الطرق الوحشية .([12])"

أراد كالفينو من وراء هذه الحكايات ترسيخ فكرة زعامة المرأة، وأنها حرة في كل شيء في أوروبا؛ مما جعله يُعطي جزءًا كبيرًا في حكاياته لفاعليتها في المجتمع، ولعل سبب انحياز كالفينو لنصوص الليالي أنه وجد فيها فكرة رمزية وهي (الخلاص) أي خلاص المرأة من قيودها، وذلك في محاولة منه لإحياء بطولتها داخل المجتمع.

كانت إحدى أهم الصور التي اتسمت بها المرأة في هذه الحكايات العربية والإيطالية الغدر والخيانة والسحر والانحطاط الأخلاقي، ولكن ذلك لم يمنع من وجود بعض النماذج للمرأة الصالحة النقية والتقيَّة في الحكايات.

ركَزَّت الحكايات العربية على قدرة المرأة في اكتشاف الشخص المسحور وسبب سحره وفاعله؛ ليدل على مدى الذكاء والفطنة والإلمام بأمور السحر، بل وضَّحت مدى تصميم المرأة على معالجة الشخص المسحور حتى وإن كلفها ذلك الدخول في صراع مع القوى الخارقة الأخرى؛ مثلما حدث مع ابنة الملك في حكاية (القلندري الثاني) وصراعها مع الجني. كما وجد في حكاية (قصر الرجل الميت) حينما قررت الفتاة الرحيل وترك منزلها وكل ما لديها؛ لتبحث عن ذلك الرجل الميت بسبب لعنه أصابته، وتخليصه منها والزواج به.

3- الحب والزواج

اشتملت الحكايات العربية والإيطالية على العديد من القصص التي تناولت علاقات الحب، وأمور الزواج .

ولقد تدخل السحر في مثل هذه القصص، وساعد هذا التدخل على المساعدة في جريان الأحداث ووصلها إلى الهدف المرجو منه ألا وهو الحب أو الزواج .

كذلك ساعد تدخل المرأة على وجه التحديد ومعرفتها بأمور السحر إلى التوفيق بين المتحابين، أو مساعدة نفسها في الزواج بمن تريد، نتيجة لدرايتها بالسحر وفنونه.

وذلك مثلما وجدنا في الحكايات التي خلَّصت فيها المرأة الرجل من سحره، ففي أغلب الحكايات تشترط الفتاة أن تتزوج من الرجل الذي خلَّصته من السحر.

قامت ابنة الراعي في حكاية (التاجر والجني) بفك السحر عن ابن الشيخ الأول صاحب الغزالة، وكان من ضمن شروطها الزواج من هذا الفتى :" قالت: نعم يا سيدي انه ابنك وحشاشة كبدك. فقلت لها:" أيتها الصبية إن أنت خلصته فلك عندي ما تحت يد أبيك من المواشي والأموال. فتبَّسمت وقالت:" يا سيدي ليس لي رغبة في المال إلا بشرطين: الأول أن تزوجني به، والثاني أن أسحر من سحرته.[13] "

وكان ذلك شرطاً لتخليص علي المصري أيضًا من سحره في حكاية (أحمد الدنف وحسن شومان مع زينب النصابة وأمها).

قام الرجل اليهودي بسحر على المصري وجعله على صورة كلب، واكتشفت الفتاة ذلك بمجرد دخوله عليها مع والدها، ولم تخُلِّصه من سحره إلا بعدما وافق على الزواج منها.

" قال:" يا أبي أتجيء بالرجل الأجنبي فتدخله علينا"؟. فقال:" يا بنتي هذا كلب". فقالت له:" هذا علي المصري سحره اليهودي". فالتفتت إليه وقالت له:" هل أنت علي المصري؟". فأشار له برأسه "نعم". قال لها:" لأي شيء سحره اليهودي؟"، قالت له:" بسبب بدلة ابنته قمر وأنا أقدر أن أخلصه". فقال:" إن كان خير فهذا وقته". قالت:" إن كان يتزوج بي خلَّصته". فأشار لها برأسه :"نعم".. فأخذت طاسة مكتوبة وعزمت عليها ورشت منها الكلب وقالت له:" ارجع إلى صورتك البشرية". فعاد إنسانا كما كان أولاً" .[14]وبذلك نفعها سحرها في شيئين تخليص المسحور من سحره والزواج به.

توجد مثل هذه النماذج في قصص إيتالو كالفينو أيضاً، حيث تستخدم الفتاة أساليبها السحرية للوصول إلى حبيبها والزواج منه.

ففي حكاية (ابنة الشمس) فعلت الفتاة العديد من الأمور السحرية، لتصل إلى مبتغاها وتتزوج ابن الملك الذي تحبه، ولكن والده يرفض هذه الزيجة ويقرر زواج ابنه من فتاة غيرها ويقوم بطردها من المنزل. ومن هنا تبدأ الفتاة باستخدام حيلها السحرية لتتخلص من العرائس المعروضة لابن الملك.

فقامت بخلع رأسها من مكانها، وخرجت للحراس بدون رأس، وتحدثت مع الفرن والسكين، واخرجت شريطاً من الذهب من أذنيها، وزرعت شعيرًا وحصته في ساعة زمنية واحدة، وخرجت من الحائط

بدلًا من الباب أمام سُفراء الملك الذين ذهبوا إليها لدعوتها لحضور حفل الزواج لأنها كانت من ضمن قائمة الأقارب، ودخلت أمامهم الفرن وهو مشتعل وخرجت وهي سليمة تماما لا يوجد بها أي حروق.

" فتحت لهم المطبخ وقالت :- ماذا يمكن أن أجهز لحفل زفاف ابن الملك؟ هيا هيا يا حطب اذهب إلى الموقد، هيا يانار اشتعلي! وجهُز كل شيء في لحظة أمام السفراء الذين كانوا يتصببون عرقًا ثم أردفت:- يامقلاة ! اذهبي فوق الموقد! يازيت اذهب إلى المقلاة وعندا تغلي نادني . بعد قليل، نادى الزيت:- سيدتي، أنا أغلي.- حسنًا وابتسمت ابنة الشمس ووضعت أصابعها في الزيت المغلي، تحوَّلت الأصابع إلى أسماك، عشرة أسماك مقلية ثم عشرة أسماك مشويةز لفتهم ابنة نور الشمس في ورقة بعد أن عادت اصابعها إلى طبيعتها، ثم أعطت اللفافة إلى السُفراء وهي تبتسم" (15).

هذه الأمور السحرية أصابت الحراس بالذهول، وفي كل مرة يعود الحراس أو السفراء إلى الملك ويخبرونه عن كل تلك الأشياء العجيبة. وفي كل مرة كانت عروس الأمير تُصِر على تقليد أفعال الفتاة العجيبة؛ لتتعرض بعدها لكارثة كبيرة إما لحروق في الجسد أو قطع أذنها أو قطع رقبتها. وبعد كل مرة يبحث الملك عن عروس جديدة لابنه.

وتمكنت في نهاية الأمر من الوصول لهدفها وتزوجت من الأمير بفضل قدرتها السحرية على زراعة شعير لشفاء الأمير من مرضه، حيص زرعت هذا الشعير وحصدته خلال ساعة زمنية واحدة فقط، ولم يكن في استطاعة أحد فعل ذلك الأمر سواها.

" وفي ومضة بذرت الشعير الذي نما وحصدته وصنعت منه الطعام قبل أن تمر الساعة. أرادت الفتاة أن تذهب بنفسها لتقديم الطعام لابن الملك الذي كان يرقد في سريره مغمض العينين.. شفي ابن الملك من فوره وتزوج من ابنة نور الشمس، ومنذ ذلك اليوم اصبحت امرأة عادية مثل الأخريات وكفت عن فعل الأشياء الغريبة. **(16)**"

فدور المرأة في الحكايات العربية والإيطالية المتعلقة بالسحر يكاد يكون متشابه في هذا الغرض، ألا وهو سعي المرأة إلى حبيبها أو إلى الزواج من خلال الأمور السحرية.

4- السعي لتعزيز بعض القيم في المجتمع.

اشتملت الحكايات العربية والإيطالية على العديد من نماذج المرأة المثقفة، والمتحررة، والعارفة ليس فقط بأمور القراءة والكتابة إنما العارفة بأمور الحياة والدين والتاريخ والسياسة وأخبار الأمم السابقة، وهي الأم القوية والذكية، والفتاة المخُلِصة والمتحضرة في معاملاتها.

استطاعت الجارية زوجة الوزير في حكاية (الملك وولده والوزراء السبعة) وفي قصة (الوزير الأول في كيد النساء) على وجه التحديد، ترسيخ مبدأ الوفاء وعدم الخيانة. حينما أحسنت التصرف مع الملك شديد الغرام بالنساء، حيث ذهب إلي بيت وزيره أثناء غيابه، بعدما أرسله إلى بعض جهات المملكة ليطلع على أحوالها، وذهب إلى زوجته ليراودها عن نفسها.

وساعدها علمها وما تميَّزت به من ذكاء وفطنة ومعرفتها بأمور الشرع، ساعدها ذلك على جعل الملك يتراجع عن ما نوى عليه، ورحبَّت به ترحيبا يليق به، وقالت له :" يا مولانا ما سبب القدوم المبارك ومثلي لا يكون له ذلك"؟ فقال:" سببه أن الشوق إليك أقدمني على ذلك.[17]"

لم تتعصب الفتاة ولم ترتكب الحماقات بالكلام، وإنما استخدمت ذكائها حتى لا تجعله يأخذ المسألة على محمل العِناد معها، ويُصمم على فعل ما يريد، فطلبت منه أن يصبر عليها حتى تُعد له الطعام، وفي أثناء إعدادها للطعام نهضت الجارية :" وأتته بكتاب فيه المواعظ والآداب ليقرأ فيه حتى تجهز له الطعام، فأخذه الملك وجعل يقرأ فيه فوجد فيه من المواعظ والحكم ما زجره عن الزنا وكسر همته عن ارتكاب المعاصي".[(18)]

لقد منعته هنا بأن ركزَّت على الجانب الديني لديه، فإن كان قد نسي الله والدين، وغلبه شيطانه، فكان عليها أن تُعيد له حساباته مع نفسه، واعتمدت على قراءته للكتب بنفسه، حتى يكون أشد تأثيرًا عليه، ورأت أن ذلك أفضل بكثير من أن تجلس وتقص عليه قصص الوعظ والآداب.

وفي ذلك الصدد تقول ماجدة محمود:" عانى شهريار من عقدة الزوجة الخائنة، لهذا قرن الخيانة بجنس النساء، وبات يتخلص من كل امرأة يتزوجها! وقد أتت بعض الليالي رداً على هذا الموقف السلبي، فأعادت الاعتبار للمرأة، لهذا وجدناها مخلصة لزوجها، ترفض خيانته رغم فقره، وما أتيح

لها من مغريات حتى وجدناها في إحدى الليالي من شدة إخلاصها لحبيبها تصطنع الجنون حتى لا يقربها أحد من الرجال أبدًا".[19]

وجعلته يتراجع عما يجول في خاطره، بأن نبهته إلى أنه يمتلك من النساء الكثيرات وأنهن متشابهات. وذلك بالحيلة التي فعلتها حيث جهزَّت الطعام ووزعته في الأواني؛ ليختلف شكل الطعام ويتشابه في المذاق.

" فتعجب الملك من ذلك غاية العجب ثم قال:" أيتها الجارية أرى هذه الأنواع كثيرة وطعمها واحد". فقالت الجارية:" أسعد الله الملك هذا مثل ضربته لك لتعتبر به". فقال لها:" وما سببه"؟ فقالت :" أصلح الله حال مولانا الملك إن في قصرك تسعين محظية مختلفات الألوان والغاية واحدة". فلما سمع الملك ذلك الكلام خجل منها وقام من وقته وخرج من المنزل ولم يتعرض لها بسوء.[20]" إن هذه الحكاية تبرز قدرة المرأة على حسن التصرف في أمورها، وتمسكها بالوفاء، وقدرتها على الخروج من هذا المأزق بالحيلة والذكاء.

ومن القيم أيضًا التي سعت الحكايات إلى تحقيقها؛ التعاون وتحصيل المنفعة، سواء كانت المنفعة شخصية، أو لمساعدة الغير على تحقيق أهدافه والوصول إلى مبتغاه.

في الليالي وتحديدًا حكاية (علاء الدين أبي الشامات) استخدمت زوجة علاء الدين، (الخرزة السحرية)، التي ساعدتهم بعدما انتقلوا بالسرير السحري إلى أرض لا ماء فيها ولا نبات، حيث جعلت الأرض تنبض بالحياة؛ فنبتت الأشجار، وخرجت المياه من باطن الأرض.

" فأحضرت الخرزة وحطَّت يدها على الوجه الذي هو منقوش عليه سرير ودعكته، وإذا بسرير وضع قدامها، فركبت هي وعلاء الدين وزوجته زبيدة العودية .. فارتفع بهم السرير وسار بهم إلى واد لا نبات فيه، فأقامت الأربعة وجوه الباقية من الخرزة إلى السماء وقلبت الوجه المرسوم عليه السرير فنزل بهم إلى الأرض، وقلبت الوجه المرسوم عليه هيئة صيوان وصكَّته وقالت:" لينصب صيوان في هذا الوادي". فانتصب الصيوان وجلسوا فيه.. وقالت:" بحق أسماء الله أن تنبت هنا أشجار ويجري بجانبها بحر". فنبتت الأشجار في الحال وجرى بجانبها بحر عجاج متلاطم بالأمواج. فتوضأوا منه وصلُّوا وشربوا. ثم قلبت الثلاثة الوجوه الباقية من الخرزة إلى الوجه الذي على هيئة سفرة الطعام، وقالت:" وبحق أسماء الله أن يُمدَّ السماط". وإذا بسماط امتدَّ وفيه من سائر الأطعمة المفتخرة، فأكلوا وشربوا .[21]"

استطاعت حسن مريم من خلال أدواتها السحرية، وخبرتها بأمور هذه الخرزة التي ورثتها عن جدتها من قبل، في الاستفادة منها في الخير، ومساعدة نفسها وزوجها علاء الدين وزبيدة العودية في البقاء على قيد الحياة، وجعل الأرض قابلة للعيش عليها، ولم تستخدمها للتخلص من زوجة علاء الدين (زبيدة العودية)، بل استخدمتها لتحصيل المنفعة العامة لهم جميعًا.

وفي الحكاية الإيطالية (ملك الحيوانات) نجد دور المرأة في حكايات السحر المتمثل في المساعدة على تحصيل المنفعة ورفع الضرر، ففي هذه الحكاية أهدت العمَّة الفقيرة الساحرة ابنة أخيها خاتماً سحريا، ليعينها على الحياة ويجلب لها الحظ.

استخدمت الفتاة هذا الخاتم في رفع الضرر الواقع عليها، من قِبَل ملك الحيوانات. ذلك الملك الذي يختطف الفتيات ويحبسهن ويحولهن إلى حيوانات وطيور. وتمَّكنت بواسطة هذا الخاتم اكتشاف حقيقة القصر المحبوسة فيه، كما أظهر لها الوصيفة غير المرئية التي كانت تخدمها وتلبي لها كل طلباتها بدون أن تراها أبداً.

"تذكرت ستلينا خاتم العمة ذهبت لتأخذه من درج الشيفونيرة حيث وضعته في يدها وقالت: آمر أن أرى من حولي، وفجأة ظهرت بجانبها وصيفة جميلة. قفزت ستلينا من الفرحة! أخيراً وجدت أحداً أتكلم معه.[22]"

كما ساعدها هذا الخاتم في الهروب من القصر، وبناء قصر مجاور لها لابن ملك الهند الذي ساعدها على الهرب، وتزوج بها في نهاية الحكاية.

واستخدمته في قتل ملك الحيوانات التي اكتشفت حقيقته، فهو يقوم بخطف النساء ومسخهم وتحويلهم إلى حيوانات، ثم يأكلهم، والتي حررتهم في نهاية الحكاية.

" ستلينا لقد خنتني. وسقط ميتاً. وبعد موته عادت كل الحيوانات إلى أصلها: من كان ملكاً ومن كانت ملكة ومن عاد أميراً، وشكروا ستلينا. وكان هناك من يريد ان يهديها مُلكًا أو يتزوجها. وأجابتهم : – أنا مخطوبة وعريسي في انتظاري. خرجوا جميعًا من القصر الذي احترق، وعاد كل إلى بيته وسافرت ستلينا إلى الهند مع ابن الملك وعاشا في سعادة".[23]

استطاعت الفتاة وبفضل خاتم عجوز السحري، التخلص من ضرر ملك الحيوانات الواقع عليها، وكذلك استطاعت تحرير غيرها من الرجال والنساء الذين كانوا متحولين إلى أنواع مختلفة من الحيوانات؛ كلاب، وقطط، وحمير، ودجاج، وضفادع كبيرة.

سعت المرأة في هذه الحكايات السحرية سواء العربية أو الإيطالية؛ إلى الترسيخ لبعض القيم الاجتماعية، مثل الوفاء، والاخلاص، والتعاون، والمساعدة على فعل الخير.

ومن خلال ما سبق يمكن القول أنه؛

1. تعددت أدوار المرأة في إطار الاعتماد على الأمور السحرية في الحكايات العربية والإيطالية، ولم يقتصر السحر فقط على العجائز من النساء، إنما استخدمته الفتاة الشابة والعجوز معاً.
2. يمكن ملاحظة أن أغلب النساء اللاتي يمارسن السحر في ألف ليلة وليلة عادة ما يكن من الفتيات الجميلات والنساء الصغيرات في العمر، بينما النساء اللاتي تمارسن السحر في الحكايات الإيطالية أغلبهن من العجائز، المُسنَّات قبيحات المنظر والهيئة.
3. لم يقتصر دوار المرأة في هذه الحكايات على الشر فقط، إنما عرفت العديد من النساء اللاتي تميَّزن بالخصال الحميدة؛ كالوفاء، والإخلاص، والتضحية، والتعاون.
4. أغلب الحكايات التي تلعب فيها المرأة العديد من الأدوار تهدف إلى العبرة والعِظة، كما أن تعدد صور المرأة في الحكايات العربية والإيطالية، جعلها غير مُدانة دائمًا، فكما فعلت السحر لإيقاع الضرر والأذى على الغير، وقعت هي نفسها ضحية لهذا السحر، والذي أثر على حياتها بالسلب في كثير من الأحيان، أو زهِقت روحها جراء هذا السحر الممَارَس عليها.

***

هوامش البحث

[1] تُعرَف بـ" الليالي العربية"، وهي نتاج شعبي وليس نتاجًا فرديًا، ويسميها الغرب بـ" الليالي العربية" وهي عبارة عن مجموعة من القصص ذات أصول هندية وفارسية معروفة قديماً، وبعض القصص مأخوذة من أخبار العرب والقصص المتداولة فيما بينهم .

[2] حكايات شعبية إيطالية كتبها الروائي الإيطالي إيتالو كالفينو(1923_ 1985م) عام 1956م، وهي حكايات شعبية إيطالية من مدن إيطالية متفرقة مثل " توسكانا، مونتالي، صقلية". تم تكليف إيتالو كالفينو بجمعها وترجمتها عن لغتها الأصلية إلى اللغة الإيطالية، مستعينًا ببعض المصادر الإيطالية في جمع الحكايات، مع بعض تيمات حكايات الشرق المتمثلة في ألف ليلة وليلة.

[3]انظر: ألفت عمر باشا الأدلبي، المرأة في ألف ليلة وليلة، دمشق، مجلة التراث العربي، اتحاد الكُتَّاب العرب، مجلد3،ع(5/4)، 1973م، ألف ليلة وليلة، سهير القلماوي، مصر، مكتبة الأسرة، الطبعة الأولى،1997م.

[4] فيبكيه فالتر، صورة المرأة في ألف ليلة وليلة، ألمانيا، مجلة فكر وفن، ع 36، 1981م، ص.9.

[5] ألف ليلة وليلة، لبنان– بيروت، منشورات دار المشرق، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، 2000م، ص.40.

[6] نفسه ج1/ ص.41.

[7] إيتالو كالفينو، حكايات شعبية من إيطاليا، ترجمة؛ نجلاء والي، القاهرة، دار شرقيات للنشر والتوزيع، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 2007م، ص.137.

[8] إيتالو كالفينو، حكايات شعبية إيطالية 3 / ص.23.

[9] ألف ليلة وليلة ج5/ ص18.

[10] إيتالو كالفينو، حكايات شعبية إيطالية ج1/ ص.89.

[11] نفسه ج1/ ص.206/ 207.

[12] محمد عبد الجابر جاسم، صورة المرأة في الليالي العربية، بغداد، جامعة الموصل، كلية الآداب، ع 42، 2005م، ص. 29.

[13] ألف ليلة وليلة ج1 / ص.14.

[14] نفسه ج5/ ص.232.

[15] إيتالو كالفينو، حكايات شعبية إيطالية ج2/ ص.178.

[16] نفسه ج2/ ص.179/ 180.

[17] ألف ليلة وليلة ج5/ ص.9.

[18] نفسه ج5 / ص.10.

[19] ماجدة حمود، صورة المرأة في ألف ليلة وليلة، دمشق، مجلة التراث العربي، ع 115، 2009م، ص.243.

[20] ألف ليلة وليلة ج5/ ص.10.

[21] نفسه، ج3/ ص.101.

[22] إيتالو كالفينو، حكايات شعبية إيطالية ج2/ ص.23.

[23] نفسه،ج2، ص.26.